

تجربتي الأدبية

(حديث لبيروت) (*)

بسلاح الجو الملكي البريطاني لامضي خدمتي العسكرية . وفي الاسابيع الاولى القليلة ، استمتعت بالتمارين القاسية . بعدها وضعتني في وظيفة مكتبية اخرى ، وابتدأت اكرهها بقدر ما كرهت مكتب الضرائب . لقد اصبحت غير كفؤ حتى ان الضابط المساعد الفى اجازتي كلها وهجرتني في الغيم . وفي احد الايام لوح برسالة تحت انفي وسألني اذا لم اكن خجولا بما طبعت على الآلة الكاتبة بشكل سيء . عندها فقدت اعصابي واخبرته بان يذهب الى الجحيم . وتوقعت ان اوضع في الاسر . ولكن عوضا عن ذلك ، ارسلني لاقابل المسؤول الطبي ليرى اذا ما كنت شاذا في تصرفي . وحاولت جاهدا ان اضع الطبيب بانني مخبول او على الاقل غبي الى درجة الخطورة . لكن، عندما لم ينفع ذلك، حاولت اخباره بانني لوطي (ولم يكن ذلك حقيقيا .) فكان التأثير مدهشا . فخلال اسابيع قليلة طردت من سلاح الجو الملكي موصوما بتهمة « العاطفة المهزوزة » . كان من السهل ان اقدر على تصديق ذلك بصعوبة . لم اكن اريد ان اطرد من سلاح الجو الملكي ، بل اردت فقط ، ان اتخلص من الاعمال المكتبية . وهكذا فجأة اصبحت حيرا ثانية . وهذه المرة اقسمت ان لا اضع حياتي ثانية بعمل امقته . لقد فصلت ان اصبحت مشردا . فاشترت كيسا للنوم ، وتجولت حول انكلترا وفرنسا ملتحقا بوظائف عديدة ، كعامل مزرعة او عامل متمرن ، عند احتياجي للمال . واستمرت على هذا النوال قرابة خمس سنين مبدلا عملي كل اسبوع . وهكذا ، ففي لندن ، كنت افترش المنزهات ومروج هامبستيد ممضيا ايامي في غرفة المطالمة التابعة لمتحف البريطاني ، مؤلفا رواية باسم « طفوس في الغلام » . كانت رواية مليئة بالشخصيات التي تشدت الحرية مثلي ، وشمرت بانه من المستحيل الحصول عليها في مجتمع صناعي حديث . وفي احد الايام عزمت على كتابة مؤلف يبحث في مشكلة غير المنسجمين اجتماعيا ، محاولا ان اجسد بعض الاجوبة، فكتبت « اللامنتمي » بسرعة دون صعوبة تذكر في قرابة ثلاثة اشهر ، وكان مقبولا لدى اول ناشر ارسلته اليه . لم اكن محظوظا فحسب في اختياري الناشر ، ولكن في الوقت الذي كتبته فيه ايضا . وقد ظهر « اللامنتمي » بنفس الوقت مع مسرحية جون اوزبورن « انظر الى الوراء بغضب » « the Square fellow » لبرندان بيهان . كانوا ، ثلاثتهم ، ناجحين ، وجميع الصحف صنفتنا « بالشباب الغاضب » .

طبعا ، هذا النجاح لم يدم . فالنقاد والصحف سرعان ما اشمازوا من اكتشافهم بالذات ، وخلال سنة واحدة لم يطلب احد منهم سماع اي شيء عن هذا « الشباب الغاضب » . لكن هذه قصة اخرى . فسواء كان « اللامنتمي » ناجحا او فاشلا فهو الى حد ما ، لا علاقة له

في البدء ، علي ان اخبركم شيئا عن نفسي . لقد ولدت عام ١٩٣١ في ليسستر - بلدة صناعية صغيرة في انكلترا . وانا انتهي الى طبقة عاملة فقيرة - وكان والدي يعمل في معمل احذية باجر ثلاثة جنيهات اسبوعيا . وقد تركت المدرسة وانا في السادسة عشرة من عمري ، لان والدي طلبا الي ان اعمل واحصل القوت . كان اقصى طموحي ان اصبح عالما ، وكنت مولعا بالفيزياء النووية مذ كنت في سن الثانية عشرة ، عندما اطلعت لأول مرة على اعمال اينشتين ونيلز بوهر . لكنني كنت شغوفا بالادب ايضا . وعندما بلغت الرابعة عشرة كنت اصغي الى تمثيلية اذاعية بعنوان « الانسان والسوبرمان » لبرنارد شو من الاذاعة البريطانية ، وبعدها مباشرة بدأت بقراءة كل شيء الفه هذا الكاتب . فقد بدا لي انه احد اعظم الكتاب الاوربيين منذ دانتني وما يزال .

عندما تركت المدرسة كنت آمل بالحصول على درجة علمية بتلقي دروس ليلية . فحصلت على وظيفة مساعد مختبر في مدرستي الاولى . ولكن خلال الفترة التي كنت انتظر فيها شغور هذه الوظيفة ، ذهبت للعمل في مصنع . كان عملا شاقا ، من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء ، واصبحت يائسا حتى انني كنت امضي المساء كله بقراءة الشعر محاولا ارضاء نفسي بقدر ضئيل من السعادة . وفجأة فقدت الاهتمام بالعلوم . لقد بدت لي جافة خالية من المعنى ، غير متصلة بالمشاكل الحقيقية لوجود الانسان - من تكون ، من اين اتينا ، ما المفروض ان نعله بحيواتنا ؟ كانت النتيجة انني عندما ذهبت الى العمل بصفة مساعد مختبر ، كنت سلفا قد صممت على ان اصبحت كاتباً وان اكتب من المشاكل الاساسية للوجود الانساني . وهكذا ، فقد واصلت العمل في المختبر لانه كان اقل مشقة من العمال في المصنع . لكنهم ادركوا في النهاية ، بانني لم اكن مهتما بالعلوم ، فصرفوني من العمل .

كنت امتلك احساس من اوقع به في مجتمع وجدته غير متعاطف معي كليا . لقد اردت ان يسمح لي بالقراءة والكتابة والتفكير والسفر . ولكن المجتمع ارادني ان ابقى في ذات المكان والعمل ثماني واربعين ساعة اسبوعيا ، وذلك كي احصل على المال اللازم لبقائي على قيد الحياة . لقد ارادني ان اصبغ جزءا من آلة . والحقيقة اني حصلت على وظيفة في مكتب ضريبة دخل ، حيث كانت ساعات العمل قصيرة ، ولكن العمل نفسه كان مملا ومكرورا . بعد سنة واحدة من هذا ، التحقت

(*) محاضرة القاها الكاتب في بيروت يوم ٢١ ايار الماضي بدعوة

من « اتحاد الكتاب اللبنانيين »

بالموضوع . الهام في الامر ، كان عندما عرضت المشكلة التي تابعت التفكير والكتابة عنها منذ ذلك الحين . لقد الفت ما يزيد على الخمسة والثلاثين كتابا منذ عام ١٩٥٦ ، وجميعها بحثت بطرق مختلفة بالمسائل التي حددتها في « اللامنتمي » .

بدأ كتاب « اللامنتمي » بهذه الجملة « لاول نظرة يبدو اللامنتمي مشكلة اجتماعية » . ولكن فقط للنظرة الاولى . فبالنسبة الي ، لم تكن مشكلة اللامنتمي الحقيقية اجتماعية ، بل هي ميتافيزيكية وروحية . سوف احاول التعبير عن ذلك بالوضوح الذي استطيعه ، ان الذي شدني ، كان تجربة الانسان في الحرية - الشعور الفجائي بالسعادة الكاملة واليقين الذي يشرف علينا في لحظات معينة . كتب الشاعر و.ب. بيتس :

ها ، عامي الخمسون قد جاء ... وانقضى

وها ، انا اجلس ، رجلا متوحدا

في مقهى مزدحم في لندن .

وامامي كتاب مفتوح وقدح فارغ

فوق منضدة من الرخام .

وفيما انا احدق من ذلك العانوت صوب الشارع

توهج جسدي فجأة ،

وطوال خمس عشرة دقيقة اكثر او اقل

بدا ويا لسعادتي العظيمة

انه قد غررتني السعادة ، وبمقدوري ان اسعد الآخرين .

تحدث الكاتب ج.ك. تشسترتون عن هذه اللحظة معتبرا اياها كشعور « الخبر المفرح اللامعقول » . كما ان عالم النفس ابراهام ماسلو يدعوها ب « المعانة الصوفية » - لحظة فجائية لسعادة غامرة ، حيث تبدو الحياة كلها فجأة جيدة وجديرة بالاهتمام ، وكل العذاب الانساني قصير الامد وغير هام .

ان الكتاب الذين اثاروا انتباهي الى حد كبير - وعلى الخصوص الشعراء الرومانسيون - غالباً ما عاشوا لحظات النشوة الفجائية هذه . ولكن بدل ان تجعلهم يحجون الحياة ، فانها تفرهم منها فحسب . لقد كان غريبا ومشووما في الوقت ذاته ، ان اجد كثيرا من الشعراء الكبار وفناني القرن التاسع عشر ، قد ماتوا بمرض السل او انتحروا ، او ادمنوا الكحول حتى الموت . فلماذا يجب ان يحدث هذا عندما لا تكون « المعانة الصوفية » ايجابية بهذا الشكل ؟ ان الجواب يكمن فيما دعوته ب « التأثير البومباردي » « the Bombard effect »

لقد ابهر العالم الفرنسي آلان بومبارديير الاطلانتيك بزورق مطاطي عام ١٩٤٩ ، محاولا ان يبرهن على ان بحارة سفينة غارقة باستطاعتهم تفادي الموت من العطش او الجوع . ففقد قطر شبكة رقيقة وراء زورقه لالتقاط العواقي (كائنات حيوانية تطفو على سطح الماء) والتقط بضعة اسماك وهرسها ليشرب عصارات اجسادها . لقد برهن على هذه النقطة - ان الانسان باستطاعته ان يظل حيا دون طعام في قارب مكشوف . لكنه ، بوسط الطريق عبر الاطلانتيك ، تعرض لتجربة قتلته تقريبا . اذ ان سفينة عابرة عرضت عليه انقاذه . لكن بومباردي رفض ، حيث صعد الى متن السفينة واكل وجبة جيدة . عندما عاد الى زورقه حاول ان ياكل السمك المهروس والعواقي ، لكن معدته قاومت ذلك وتقيا عدة ايام . وكانت النتيجة انه مات حتى قبل انظام معدته .

ان شخصياتي « اللامنتمية » كانت بشرا عاشوا هذه الومضات الفجائية من النشوة الفامرة والحدة ، ووجدوا انها بدورها اقدتهم الاستعداد للتلازم مع الحياة اليومية . هذه اللحظات من النشوة او الوجد هي شعور الرؤية الكلية ، رؤية عين العصفور ، بدلا من رؤية عيننا الدودية العادية . لقد ولدت الشهية للانسلاخ والحرية . ثم كان عليه ان يعود الى السمك المهروس وعواقي المياه اليومية . ان ذلك يشبه النزول من قمة جبل عال الى غابة حيث لا يكون باستطاعتك رؤية

عنة ياردات امامك . ان الاحساس بالانفتاح والحرية يخفني ، وتجد نفسك وقتت بشرك تفاهة الوجود اليومي الاعتيادي .

كان هذا سبب موت العديد من اللامنتمين من الياس والفتنوط . وفوق ذلك فقد بدا لي لامعقولا . ان « المعانة الصوفية » هي ومضة حرية - الشعور بان البشر هم ؟ اكثر حرية من ان يدركوا ذلك . هل هي وهم ، كاللثة التي نحس بها عندما نكون ثملين او هسي ومضة الحقيقة المدفونة بعيدا عنا ، « بتفاهة الحياة اليومية » ؟ لقد قادتني تحليلاتي - في « اللامنتمي » وفي كتابي الثاني « الايمان والتمرد » - الى الاستنتاج بانها ليست وهما . في تلك الحالة ، كيف يكون باستطاعتنا ان نحقق هذه الحرية ؟ لماذا نحن نلمحها بوضوح ثم بعد ذلك ننساها ؟ ما السبب وراء حالة فقدان الذاكرة الغريبة هذه ؟

الامر الوحيد الذي كان واضحا ، هو انها كانت تميل الى الخفاء في موافق الازمات ، قال سارتر : « انني لم اشعر ابدا بالحرية مثملا كان الحال اثناء الحرب ، اي عندما كنت عضوا في المقاومة الفرنسية . كنت قابلا لان يقبض علي واعدم دورا في اية لحظة » . ان الخطر ابقاه في حالة تيقظ كثفت الاحساس بالحرية . باستطاعتنا ايضا ان نعيش الحرية عندما نختفي الازمة . لقد كتب كامو مقالة في اخر نشرة من صحيفته السرية « المعركة » (كوميات) ، في اليوم الذي طرد فيه الالمان من باريس . عنوان هذه المقالة كان « ليل الحرية » حيث قال « باريس نحترق ولكن هذه هي مشاعل الحرية » ... لن يخضع الفرنسيون ثانية لسام الحياة دونما غاية ... من الان وصاعدا كل شيء سيتغير . وفوق ذلك عليكم ان تقرأوا سيمون دي بيفوار في روايتها « المتفنون » حيث يمثل كامو احدي شخصياتها - لتروا ملحقا لمقالة « ليل الحرية » . مرة اخرى ، الشخصيات ضجرون لا هدف لهم ، يتدفعون من والى النوادي الليلية ، وينغمسون في عمليات جنسية غير شرعية ... فماذا حدث لليل الحرية ؟

لقد بدأت ارى جوابا محدداً لهذه المسألة في الخمسينات الاخيرة . انني استلمت رسالة من استاذ اميركي لمادة علم النفس ، يدعى ابراهام ماسلو . كان ماسلو هذا مهتما بكتاب لي يدعى « Stature of man » اهاجم فيه الاحساس بالهزيمة الذي يهيمن على غالبية الادب الحديث . وقد اخبرني ماسلو انه سئم من دراسة البشر المرضى نفسيا ، لان هؤلاء المرضى لا يتحدثون الا عن امراضهم ، من جهة اخرى ، فالناس الاصحاء لا يتعبون انفسهم بالحديث عن صحتهم . وهكذا عزم ماسلو على دراسة الناس الاصحاء . واعلن اكتشافه الهام ، وخلصته ان باستطاعة الناس الاصحاء الشعور « بالمعانة الصوفية » ، هذه المشاعر المنبثقة عن السعادة الفجائية المكثفة والحرية . وهي تحدث عادة دون ترفه تماما . مثال ذلك ، كانت ام شابة ترافق زوجها واطفالها وهم ياكلون فطورهم الصباحي ، وعندما اشرفت الشمس ، غمرتها ، فجأة ، نشوة « المعانة الصوفية » . ومهما يكن من امر ، فالذي هزني كان اكتشاف ماسلو حين شرع يتحدث الى تلاميذه عن « المعانة الصوفية » ، فهم لم يبدأوا باستحضار العديد من هذه المعانة التي لم يلاحظوها مع الوقت فحسب ، بل بدأوا ايضا بالاحساس بها اكثر من مرة . لماذا كانت الحال على هذا النوال ؟ الحق ان التفكير حول « المعانة الصوفية » احدث موقفا ذهنيا معينا بالقبطة والتفاؤل ، بدلا من الشعور العادي بالملل واللامبالاة . لقد جعلتهم فجأة يدركون ان الحياة اجمل مما كانوا يظنون عادة . كنا ، عادة نتجاهل العديد من الامور السارة عن الحياة اليومية ، الانسان الراكض في الطريق وراء فطار ، يتجاهل المناظر الجميلة الممتدة على طول الشارع . اما ماسلو فقد جعلهم ببساطة يعون باننا اكثر سعادة مما نعرفه في حالة الوعي . وهكذا بطريقة ما ، فان المشكلة لا تعود الى الضعف او الفناء الانساني بقدر ما تعود الى غياب الفكر الاعتيادي .

ان العادة هي الدليل الرئيسي . فما هي العادة ؟ تستطيعون تعريفها هكذا . كل واحد منا يمتلك نوعا من الربوط (الانسان الآلي)

في العقل الباطني . فعندما انعلم لغة اجنبية ، فانني اكتسبها بمشقة وببطء ، كلمة كلمة ، وفي البداية علي التفكير مليا قبل محاولتي الكلام . بعد ذلك ، يتولى الربوط المهمة عني ويتحدث بها بفاعلية نفوقني . وعندما اسلم الضرب على الالة الكاتبة فان علي بذل عين المجهود الواعي البطني ، وبعدها يتولى الربوط المهمة ، وفجأة اسنطيع تحقيق ما اريد بسرعة قصوى ودون اي عائق تماما .

انه الربوط ، الذي جعل حضارتنا مقبولة . لكنه ذو مردود شنيع . فاذا ما ذهبت في نزهة واكتشفت منظرا اخذا ، فانني استمتع به بانتشاء . ولكن ، ابدا الاعتياد على هذا المنظر في المرة الثانية والثالثة فيما لو ذهبت الى نفس المكان . والحق ان الربوط قد سلطني متعني . والشيء نفسه يحصل في الموسيقى . فان سماعي - للمرة الاولى - لتسجيل جديد لسيمفونية موزار ، امر يفرحني للمرة الاولى - ولكنني انعلمها جيدا في المرة العاشرة . ان الربوط يستمع اليها عوضا عني . انه كالمركب اللدائي في السيارة ، الذي يستمر محاولا دفع السائق بعيدا عن مقعد السيارة كي ياخذ لنفسه المقود .

ان المخاوفات كلها تمتلك نوعا من الربوط - اللفظ ، الكلاب ، وحتى الاميبات (الحيوانات) - والا لما كان بمقدورها التعلم . اما الانسان ، فلديه ربوط اكثر قوة وفعالية من ربوط بقية الحيوانات . وهذا هو سبب مشاكله جمعاء . لقد ساعده الربوط في بناء حضارته . لكن تعقيدات الحضارة المتزايدة تفرض عليه الاستمرار في التخلي عن الاشراف على حياته وتسليم الدفة الى الربوط . ان انسانا يعيش حياة بسيطة - كالزارع ، او البدوي في الصحراء - ليس بحاجة الى ربوط معقد . وبالمقارنة ، يحتاج المقيم في المدينة الى ربوط يوازي دماغا الالكتروني عملاقا .

ما يجب ادراكه ، هو ان كل هذا ، قد حصل فجأة . ان عمر الانسان لا يتعدى المليون سنة ، ومعظم الفترة التي خلت كانت حياته بسيطة كحياة فرد او بقرة ، ان عمر الحضارة لا يكاد يتجاوز عشرة الاف سنة . ولكن فقط ، خلال مئات السنين القليلة المنصرمة اصبح الانسان اسير حضارته او كمن اوقع به في شرك ، كما هو الحال مع حيوانات حديقة الحيوان . لقد اجبر على تحويل نفسه الى دماغ الكتروني هائل كي يتعامل مع هذه التعقيدات الجديدة كلها . وقد حدث هذا كله بسرعة . بسرعة فائقة جدا .

ليس هناك من شك ، في ان الربوط هو السبب في تضائل الحرية الانسانية . فالحرية هي الشعور الذي تحسه عندما تنقلت « الانت الحقيقية » من الربوط . مثال ذلك : يتحدث ت. لورنس في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » ، عن استيقاظه المبكر ليقوم بجولة مع العرب ، كما يتحدث عن احساسه بنقاء الحواس وصفائها ، « عندما الاصوات والروائح والوان العالم كلها تهز حواس الانسان بمفرده ومباشرة دون المرور بمصفاة العقل » .

لكنك تلاحظ ان لورنس لا يضع اللوم على الربوط . انه يلوم الفكر . ان ثمة العديد من الكتاب الذين نحوا هذا المنحى الساذج . فان امثال د. هـ. لورنس ، وارنست همنغواي ، وهنري ميللر ، جميعهم نادوا بوجوب رجوع الانسان الى تجربة اكثر اتصالا مع الطبيعة والجنس ، والكف عن التفكير كثيرا . ان هذه الفكرة ظهرت للمرة الاولى عند روسو في منتصف القرن الثامن عشر . على انها لم تكن عملية كثيرا في ذلك الوقت . كما انها غير عملية بناتا بالنسبة الى الانسان المعاصر . الى جانب ذلك ، فمن الخطأ الاعتقاد ان الفكر شبيه بالربوط . انك لتفكر الان وانت تصفي الي ، وانها « الانت الحقيقية » هي التي تفكر وليس الربوط .

يمكن الحل في هذا السؤال عن الربوط وتقنياته ، دعنا نتناول هذه المسألة عن كتب . لماذا عاش ت.أ. لورنس هذا النوع من الصفاء وانتعاش الحواس في الصباح الباكر ، « عندما تصحو

الاحاسيس كلها مع طلوع الشمس » ؟ من الواضح ، انه لم يكن مرهفا . لقد كان ممتلئا بالحيوية . ان الربوط قد عزم على ان ياخذ مكانا حالما نتعب . فاذا ما قضيت يوم عمل مرهق ، فانني اكاد لا اتذكر رحلة الرجوع الى البيت . لماذا ؟ سبب ذلك هو انني ، كي اقتصد في الطاقة ، سمحت للربوط ان يتولى عملية ارشادي الى البيت . وربما اذهب الى حفلة ساهرة ولا افرط في الشرب ، ومع ذلك ، استيقظ في الصباح دون ان اتذكر كيف وصلت الى البيت . ليس بسبب الشرب ، ولكن لان الربوط هو الذي قادني الى البيت . ان الربوط يبدأ بالعمل تلقائيا عندما ينخفض مستوى النشاط عند الفرد عن معدله المطلوب تماما كما يحصل في بعض البيوت الاميركية ، اذ ان الترموستات ، (اداة اوتوماتيكية لتنظيم الحرارة) يبدأ بالعمل حالما ينخفض مستوى الحرارة عن المعدل المطلوب . ومهما يكن الامر ، فان الترموستات قابل للتعديل بمجرد الضغط على زر صغير ، حيث انك ترفع او تخفض اللفظة التي عندها يتوقف الحرارة عن الارتفاع . بنفس الطريقة ، تخيل نفسك ، انك في سلك الجندية ، وانك دعيت في منتصف الليل لتعطيل مفعول فتيلة لم تنفجر بعد . انك نسان جدا ، ورغم ذلك تدفع نفسك الى حالة يقظة وانتباه تامين ، وتظل حذرا حتى تعطل الفتيلة . انك لا تدع الربوط ياخذ مكانك ولو للحظة ، كي لا تفسح المجال لاي عمل لا يكون في الحسبان . أنت ، في الواقع ، قد غيرت موضع التيرموسات ، لانك تواجه حالة طارئة .

الآن ، اريدكم ان تفكروا بموضوع نموذجي اخر للفكر الانساني . ماذا يحصل للناس عندما يفعون في حالة حزن ، او عندما تصبح الاشياء « اكثر مما يتحملون » ، او عندما يتعرضون لخطر الانهيار العصبي . ان طقاتهم تكون قد تقلصت . حتى ان اي جهد كفييل بارهافهم . يكون هذا عادة لانهم بدأوا يملون ويقنطون من حياتهم اليومية ، وتوقفوا عن بذل وتقدير اي جهد في سبيلها . والحقيقة انهم يشعرون بالخيبة والكتابة لدرجة افساح المجال للربوط كي يقوم بمعظم اعبائهم الحياتية . لقد رفعوا من معدل الترموستات عندهم ، حتى ان الربوط اخذ يحل محلهم بمجرد الاحساس بسأم او تعب بسيطين . وبالنتيجة ، يبدأون بفقدان طاقاتهم تدريجيا . واذا ما تصورت طاقة الانسان العادي شبيهة بالخزان ، فان خزاناتهم قد تضاعلت احجامها واصبحت كبرك البط الصغيرة .

قام العالم النفساني وليم جيمس ، بابحاث هامة تتعلق بالمرضى الذين يعانون من الازهاق العصبي او ما يدعى بـ « Neurasthenia » « النوراستينيا » . ان افضل علاج لهذا المرض يصرف بـ « Huliying Treatment » اي بالعلاج عن طريق جعل المريض يمارس القوة على من هو اضعف منه . وكان الطبيب يجبر المريض على بذل مجهود اضافي ، وتكون النتيجة التماسه والفشل التامين ، حين ذاك يشعر المريض وكأنه سيموت من الالم . بعدها مباشرة ، وفجأة ، يحصل لدى المريض احساس عظيم بالراحة والسعادة . لقد فجر مجهود المريض سيلا من الطاقة وتحولت « بركة البط الصغيرة » الى خزان ثانية . فالجهود هنا ، بذل عيار الترموستات بخفضه اياه .

انك تدرك المقصود هنا . اذا ما توقفت عن بذل اي مجهود ، فان الربوط يتولى عنك المهمة ، بحيث يسرق منك طاقتك حتى ان كيانك كله يتضائل ، وتتم هذه العملية تلقائيا . واذا ما وضعت نفسك في حالة يقظة ، كما كان سارتر ايان « المقاومة الفرنسية » ، فان الربوط يمنحك تلقائيا ، مجالا اوسع للحركة ، رافدا بذلك امدادات الطاقة لديك .

لم يعد ثمة اية ملاحظة هامة كي اوردها هنا . وكما اشرت للحظة خلت ، فاننا نفسح المجال للربوط بان يتولى المهمات عنا كي نقتصد في الطاقة . فعندما اكون بكامل الوعي ، احقق شيئا ما بعناية كاملة ، ان الوعي عندي يستهلك طاقة اكثر مما لو تولى الربوط المهمة . وحالما

سجن في احد معازل الاسر النازية ابان الحرب - ان بعض السجناء قد ماتوا كالدباب حالما فقدوا الامل في الحياة - والاحساس بالهدف . ومن ناحية اخرى ، فان السجن حين يامل شيئاً ما ، يكون امله هذا قد عمل على شحن بطاريته الحيوية ، وبمقدوره ان يعيش عادة دون حدود .

ان الدكتور « هوفر » زميل ماسلو في الدراسة ، استعمل هذه المعلومات كملاج ناجح للكحوليين . وقد استخلص ، ان العديد من الكحوليين رجال ذوو ذكاء وحساسية غير اعتياديين ، ولانهم مرهفو الحس الى حد كبير فقد وجدوا ان الحياة مضجرة ومخيبة لامالهم . وهكذا يكون عن بذل اي مجهود . ويحمن عليهم الانهيار والتوقف عن الوصول الى ذروة « المعانة الصوفية » . ثم يعلمون ان الكحول كفيلة بتحقيق هذه المعانة - ويتم هذا العمل بتخدير الربوط . وهكذا فهم يبدؤون بالاعتماد على الكحول كي يحصلوا على هذه المعانة . ومهما يكن ، فان نجاح هذه العملية محدود ، اذ سرعان ما يغلفون آثارا بغيضة من جراء اسرافهم في الشراب ، ويبدؤون ايضا بالشعور بالذنب والتعاسة ، فتزداد حينها مقاومتهم للكحول ويصبحون بحاجة اكثر واكثر اليه . بعد ذلك مباشرة ، يصبحون كحوليين (مدمنين) ولا يعود باستطاعتهم فهم ما حصل . فام « هوفر » باستجاب عدد من الكحوليين ، فاكشف ان العديد منهم مولع بالشعر والموسيقى والرسم قبل ادمانهم ، ولكنهم اليوم اصبحوا اكثر فنوطا من ان يهتموا بها . وهكذا فقد اعطاهم عقارا مخدرا (هو المسكاليين) كي يمنحهم ثقة اكبر بانفسهم ، تفوق مفعول الكحول . وعندما اصبحوا نحت تأثير المخدر ، تعمد احاطتهم باجواء « المعانة الصوفية » ، مستخدما الموسيقى ، او قراءة الشعر بصوت عال ، او حتى بدمج الوان مختلفة على الشاشة . لقد وجد ان هذه التجارب المكثفة اعطت شفاء دائما لاكثر من ٨٠ ٪ من الكحوليين . كيف تم هذا ؟ تفسير ذلك واضح . لقد توقف الكحولي عن تحقيق « المعانة الصوفية » لانه كف عن استعمال ارادته . كان يشرب للوصول الى ذروة هذه المعانة ، لكنه كان يحصل على نتيجة معاكسة . انه كشخص ضل طريقه في المدينة لان احد الاشخاص قد ادار عمود الاشارة في الاتجاه العاكس . والواقع انه يسير بعيدا عن المكان الذي يود الذهاب اليه . وتحت تأثير المخدر حصل على معاناة صوفية ، وفي دقائق معدودة كان شعوره قويا وصحيا . كما انه كان بالقدر الكافي من الذكاء ليرى ان هذه المعانة متعلقة بالجهد المبذول والاحساس بالهدف ، وانه اذا ما اراد الحصول على المزيد من هذه المعانة فعليه البدء باستعمال ارادته ، وشحن بطاريته الحيوية . وكما هي الحال مع الرومانسيين فان يأسه مرتكز على نقص في المعرفة وعلى عدم القدرة على الفهم . وحالما يعرف جواب مشكلته يكف عن كونه سكبيرا .

دعني اوضح ثانية ، فعندما بدأ ماسلو بالكلام الى تلاميذه عن « المعانة الصوفية » ، شرع التلامذة حالا بتحقيق انواع من هذه المعانة اكثر . ويمكن مقارنة وعيك الى شعاع مصباح كشاف . وهذا كما قال الفيلسوف هوسرل ، امر مقصود . اذ حالما تسلط هذا الشعاع على جزء من المعرفة ، تأخذ هذه المعرفة فجأة حياة جديدة ، ويصبح معناها شيئاً ما . بل تصبح جزءا من حياتك او جزءا من وعيك . يبدو لي ان هذه التبصرات ، التي احاول شرحها ، يمكن ان يكون لها تأثيرات هامة على الثقافة العالية - وكذلك على الادب والموسيقى والرسم والعلوم والفلسفة . لقد رأينا خلال القرن المنصرم ، ان الثقافة الاوربية اتسمت بالتشاؤم المفرط . فالرومانسيون هم اول من قال : ان الحياة غير جذرية بان تعاش ، ثم بدأ الروائيون الحديثون بالكتابة عن الانهزامية والياس بالاضافة الى اعلامنا ان البطل الذكي يهزم دائما في النهاية . كذلك الحال مع الموسيقى والرسم اذ حملت تعابير هذا الاحساس العصابي بالافتراب . واعلن الفلاسفة الوجوديون امثال سارتر وكامو وهاييجر . ان الانسان قابل لان يكون حرا ، لكن الحياة

يتسلم الربوط انهمة ، ويقود سيارتي ، يكون الامر كمن يطفى مصباحا كهربائيا ، وعندنا استعمل كمية اقل من الطاقة . ومهما يكن من امر ، فثمة مردود لهذا المقياس الاقتصادي . اذ حينما يؤدي الربوط عملا مينا لي ، فانه لا يحصل على مردود من اللذة منه . واذا ما اصفيت بكل انتباه الى سيمفونية ، فانها تكلفني طاقة اكثر - ولكنني احصل على لذة منها . واذا ما استمعت ، وانا في حالة الشرود فانها تستهلك طاقة اقل - لكنني لا احصل على لذة منها . والنقطة ، هي ان اللذة تزيد في طاقتي . لقد احببت مثلا « واغتر » عندما كنت في العشرينات من عمري . في البدء وجدت ان اوبراته كانت اطول مما يجب ومرهقة ، ولكن سرعان ما وجدت انه لو تعمدت بلل اي جهد كي استمع الى Tristan / Sunners ، Masteri ، كاملتين ، لزادت لذتي ولقدرتي على التركيز . وبالنتيجة ، اكتشفت ان باستطاعتي الاصفاء لمدة اربع ساعات الى « تريستان » دون تعب .

من الواضح ان الربوط هو الدليل للاجابة عن السؤال الغامض حول الحرية الانسانية . وقد يبدو ان ذلك فكرة لا مقولة - وربما غير جذرية بالبحث ، حيث ان لحظات السعادة الكلية والنشوة الغامرة ، وربما بؤبة القديسين لله - تعود كلها الى نوع من التيرموستات الداخلي الذي يسيطر على احساسنا بالحرية . ومن ناحية اخرى ، باستطاعتنا ان نبدا بفهم مشاعر الحزن والفشل التي قادت العديد من الرومنطيين الى شرب الكحول والوت المبكر . لقد عاشوا مناخات من السرور والوجد - المعانة الصوفية . ومن ثم ، انتقلوا ليختبروا « التأثير البومباردي » ، فوجدوا الحياة اليومية تافهة وكئيبة . انهم يريدون المزيد من « المعانة الصوفية » . لقد ملوا الوجود اليومي . ان طاقتهم تتضاءل تدريجيا . كما ان لحظات الحرية تزداد ندرة ويصبحون باطراد ، مكتئين وكسالى . انها في الواقع حلقة مفرغة ، والمشكلة الحقيقية انهم لا يعرفون ماذا يحدث لهم . فهم ينظرون الى الوجود الانساني من زاوية متشائمة ويتساءلون مثل « وودزورث » « الى اين يختفي ويمضي الرؤيا ؟ واين هي الان ، النضارة والحلم » ؟

لقد عثر ابراهام جاسلو ، بالصدفة ، على بعض الاجوبة لمثل هذه الاسئلة الحيوية ، بالرغم من انه لم يأخذ بعين الاعتبار مدلولها العام . فهو عندما بدأ بمزاولة العلاج النفسي في اواسط الثلاثينات ، اتته فتاة كانت تعاني من سويداء انتحارية ، كانت معنوياتها منهارة لدرجة ان هيضها توقف . اكتشف ماسلو انها تلميذة متفوقة في الكلية ، حيث كانت ترغب في ان تصبح عالمة اجتماعية . ولسوء الحظ ، كان هذا ، الشق الاول من سويدائها ، فعندما تركت المدرسة لم يكن ثمة من وظيفة شافرة . ثم عملت مديرة لشؤون الموظفين والمستخدمين في معمل للملكة ، حيث كانت تتقاضى اجرا ممتازا . واضعى بمقدورها اعالة ابيها واخوانها الذين كانوا عاطلين عن العمل . على ان العمل قد اضجرها بعد مضي ثلاث سنوات ، حتى انها انتكست من جديد واخذ شعورها يتحول يوما بعد يوم ، بانها نصف حية . وسرعان ما وجد « ماسلو » ان المشكلة تكمن في احياء اهتمامها بالحياة . لهذا فقد نصحتها بان تذهب الى مدرسة ليلية كي تحصل على درجة علمية في علم الاجتماع . وفعلت الفتاة ، كما اقترح عليها ماسلو ، فذهبت الى مدرسة ليلية - عندها اختفت كل العوارض خلال اسابيع قليلة . وما ان بدأت ببذل مجهود اكبر في الحياة ، حتى اضحت تشعر بحرية اكثر تلقائيا .

ان عمل اللذة هذا - مردود اللذة - يبدو كشاحن البطارية في سيارتك . فانت طالما كنت تقود سيارتك بانتظام ، تظل بطاريته مشحونة . فاذا ما تركتها في مراب لاسبوع قليلة ، فسرعان ما تفرغ البطارية . ان بطارياتنا الحيوية تصبح كذلك عندما تكف عن الاحساس بالهدف . ولقد لاحظ العالم النفسي « فيكتور فرانكل » - الذي

الإنسانية مأساوية وعقيمة . كتب سارتر : « لا جدوى من حياتنا ومماننا معا ، لان الإنسان نزوة غير مجدية » .
عندما أتوجه للتدريس في الجامعات الأميركية أرى ان التلامذة الشبان يتشربون هذا التشاؤم كله ، لانهم يتلقون من أسانذتهم ان الإنسان الحديث صائر الى القنوط والعجز . وما النازية ومعسكرات الاعتقال سوى نتيجة هذا القنوط ، لان عدم استطاعة الأذكىاء تقديم الأمل الى البشر يحولهم الى أي شخص بمقدوره منحهم ولو ومضة من هدف او بصيصا من أمل .

دعني أذكر حادثة أخرى قد تساعد في تحديد وجهة نظري . كان العالمان : « روبنشتاين » و « بست » Best يقومان بتجارب على ديدان البلاناريا (ديدان صغيرة مسطحة على شكل ورقة النبات) لمعرفة كيفية تعلم هذه الديدان . تصنف البلاناريا بين مجموعة الكائنات البسيطة ، ليس لها دماغ ، او معدة ، او جهاز عصبي . ورغم ذلك فمن الواضح ان باستطاعتها التعلم . وقد أثبت « روبنشتاين » و « بست » ذلك بحصر عدد من الديدان في انبوب بلاستيك مليء بالماء . والبلاناريا تحتاج الى الماء لكي تعيش . تم ادارا حنفية جفعت الانبوب من الماء . وفي نوبة دعر ، بدأت الديدان بالتلوي في الانبوب بحثا عن الماء . وسرعان ما وصلت الى مفترق طرق في الانبوب . المر الاول كان مضاء ودالا على اتجاه الماء ، اما الآخر فكان مظلما ولا يوصل اليه . بعد ذلك عرف ٨٠ ٪ من الديدان طريقها الى الماء حينما كان العلماء يجفون الانبوب الرئيسي . ثم بدأ يحدث شيء غريب . اذ بينما ظلا يميذان هذه التجربة - مستخدمين نفس الديدان - حدث ان بعضها اخذ يتسلل الى الطريق المظلم الذي لا يقود الى مكان ما . وهذا ما حيرهما . بعد ذلك ، عندما استمرا باعادة التجربة ، رفضت الديدان في النهاية التحرك بنانا . وعندما جفف الانبوب من الماء كانت الديدان تمكث في امكنتها كأنها تقول : « يا الهي ، ليس ثانية » ، وتفضل الموت على البحث عن الماء . حسنا ، لقد جرب العالمان كل تفسير محتمل لهذا السلوك الغريب . وفي النهاية اقترح احدهما ، انه لربما عرفت الديدان كيفية إيجاد مصدر الماء بسهولة فائقة الى حد انها ملت العملية كلها . فد يبدو ذلك لا معقولا - فالبلاناريا ليس لها دماغ ، ومن المؤكد ان الملل هو ضرب من ضروب الشكوى المتعمدة .

ومهما يكن الامر ، فقد قاما بتجربة لقياس هذه الفرضية . واخذا مجموعة جديدة من البلاناريا وانبوبين . الاول مصنوع من بلاستيك خشن في انداخل والاخر من بلاستيك ناعم ، لدرجة ان الديدان اصبحت تحس بواسطة معداتها ، الفرق بين الاثنين . في الانبوب الخشن ، كانت المياه في المر المضاء . وفي الانبوب الناعم كانت المياه في المر المظلم . وهذه المرة اكتشف ثلث الديدان العجيلة لإيجاد مصدر المياه - في كلا الانبوبين . لكن هذا الثلث لم يتراجع او يتنكس ابدا . كان باستطاعته اعادة الكرة ملايين المرات دون ان يضل الطريق او يمل من المحاولة . ماذا حصل ؟ عند تجفيف الانبوب من المياه ، كانت الديدان تمر في لحظات رعب وحذر . كان الفلق هو الدافع الى عملية التعلم . لكن هذا الفلق سرعان ما ازيل ، عندما اكتشفت الديدان طريقها للحياة . اما نحن فنعلم اننا عندما نتعلم شيئا صعبا ، يتحول هذا الامر الى الربوط ، وهذا الأخير بدوره ينجز العمل تلقائيا . ان المستوى الذي يبدأ عنده الربوط عمله ، يحدد بكمية الفلق او الجهد المبذول في عملية التعلم . فالمجموعة الاولى من البلاناريا تعلمت بسرعة نسيبا ، وقلتها ايضا زال بسرعة . وهكذا فقد تولي الربوط عنها المهمة بمجرد الشعور بتعب او ملل بسيطين . وسرعان ما وجدت ان كل هذه العملية مضجرة ، ففضلت الموت على اعادة التجربة ثانية . اما المجموعة الثانية من البلاناريا ، التي كان عليها حل مسألة اكثر تعقيدا ، فقد كان عليها ايضا بذل مجهود مضاعف للتعلم . وفي الواقع فقد خفضت تيرموستاسستها الى درجة أقل ، وهكذا فلن تمل او ترهق نفسها بسهولة . لقد استمرت في الحصول على مردود من السرور نتيجة

فدترتها على حل مشكلة إيجاد مصدر المياه .
تلاحظون الان ، ان المجموعة الثانية من البلاناريا ، كان عليها ان تضع طاقة مضاعفة في عملية التعلم . لكن هذا لا يعني انه يلزمها وقت مضاعف كي تمل عملها . ان باستطاعتها الاستمرار الى الأبد . فوضعها اي مجهود مضاعف في عملية التعلم ، تكون بذلك قد رفعت المستوى العام لحيويتها .

اعتقد الان ، انه آن لمفاهيمي الرئيسية ان تبدأ بالظهور ، كان الناس الأذكىاء في القرن التاسع عشر - « اللامنتهون » - يخيبون بسهولة . وكالديدان ، كانوا يفضلون المكوث والموت على ان يسذلوا مجهودا اخر . لقد اثرت كآبة القرن التاسع عشر هذه على الثقافة الأوروبية كلها - ليس في أوروبا فحسب ، بل في أميركا وروسيا ايضا . ولقد أنتج القرن العشرون ثقافة عالية واحدة اصبحت بدورها مشكلة عالية . ان العديد من مفكري هذا العصر البارزين ، قد وعوا الحاجة الى انسان يرتقي الى مستوى عال ، متخطيا الشعور باليأس . انه الموضوع الاساسي عند « برنارد شو » و ه.ج. ويلز ، وهرمان هيس ، وألبرت كامو . لكن معظمهم ليس لديهم اية فكرة عن كيفية حصول ذلك . لقد اعترف المؤرخ توينبي ، انه لا يرى اي حل لهذه القضية ، ولكنه شاهد ملاكا في حلمه ، اخبره بان « يأمل ويتنظر » .

الذي افترضه هو انهم هزموا بسهولة . فالفرضية ليست بالتمقيد كما بدت للوهلة الاولى . ان فضية الفشل في الحياة التي ذكرتها في « اللامنتي » - ليست مطلقة . اذ في اللحظات الحادة والشديدة ، نرى ان الحياة مدهشة الى ما لا نهاية . القضية تكمن في ضبط وتعبير الترموستات كي لا يعود الربوط ويجعل فهمها مستحيلا علينا .

اعتقد ان ما قلته هذا المساء يزودنا بالحل الاساسي للقضية ، التي ولدت القنوط في القرن التاسع عشر ، وقادت الى افطع الحوادث في تاريخ القرن العشرين ، فالانسان يمتلك قدرة أكبر مما يظن على استيعاب الحرية . ان القسم الأكبر من عملي قد وقفته على استنباط التقنيات العملية التي بواسطتها تزداد وتقوى هذه الحرية . لقد انأخت مشكلة القنوط برأسها عبر طريق الحضارة الغربية تماما كالشجرة الهاوية . اعتقد ان التبصرات هذه ، تزودنا بالجهاز العملي لازالة الشجرة الهاوية . وانني أؤمن بقوة ، ان الإنسان المعاصر هو على اهبة الانتقال الى مرحلة جديدة تتخطى حالة القنوط واليأس ، والنتيجة ستكون اعظم حضارة سيرفها العالم يوما .

ترجمها عن الانكليزية
هاني هزيمة

دار الطليعة تقدم

- الشيوعية والشرق
- حول الدين
- طريق السلطة
- الحزب والطبقة
- المجتمع المصري والجيش
- التطور الامتكافي
- الاسلام والرأسمالية
- الماركسية والمسألة الفلاحية
- الصهيونية نظرية وممارسة

مجموعة من الكتاب السوفيتية

صلة القرآن باليهودية والمسيحية

د . فلهلم رودولف

دار الطليعة - بيروت - ص ب ١١٨١٣